

افتتاحية :

حمد الجاسر العالم .. المحقق

لا شك أن رجيل العلامة «حمد الجاسر» عن عالمنا العربي والإسلامي خسارة لا تعوّض؛ فهو رمز من رموز الثقافة الأصيلة، وفارس من فرسان جيل نفتقده.

لم يمت حمد الجاسر فأعماله الخالدة في البحث والتنقيب عن التراث العربي ستجعله حياً في ضمير الأمة وفي مصاف أعلام تراثنا المبدعين ، وسيظل الرائد المبدع للدارسين والمحققين ، ومثلاً يحتذى في عطائه الصامت ، وجهده وتضحيته في سبيل العلم والمعرفة.

أطلّ حمد الجاسر على التراث العربي بعيني نسر ، وقد أوتي من الجلد والإخلاص للمعرفة ما يعجز القلم عن وصفه ، مع ذاكرة قوية وذكاء لمّاح ينذر لهما مثيل ، وتواضع وشغف بالعلم ، وتفانٍ في خدمة الحقيقة ، وتفرّغ كلي له صرفه عن كل مغريات حضارة عصرنا الاستهلاكي الذي تتجاذب فيه الإنسان شتى المفاتن والمغريات المادية ، فقع من أغراضها باليسير، وكان من حقه على الأمة أن ينال الكثير.

ما كان لي شرف التعرف إلى العلامة الجاسر رحمه الله ؛ بل كانت صلتني به تواصلًا مع آثاره .. وأخصها كتاب «الرحلات» وهو كتاب جمع فيه مشاهداته وملاحظاته التي دوّنها خلال طوافه في عدد من البلدان العربية والأوروبية باحثاً ومنقّباً عن التراث ، ففي هذه الرحلات يطل حمد الجاسر الإنسان والأديب فيتنازع الظهور مع «حمد الجاسر» العالم وهذا مما يدفعنا إلى لون من الحيرة في انتزاع إعجابنا بأي منهما ، ويجعلنا نتساءل

عن سر العظمة .. وأين تكمن في كليهما ، وأيّهما أحق بالصدارة في حياته ، ونخلص أخيراً إلى أن كليهما يكونان وحدة إنسانية شاملة في شخصيته ؛ إذ لولا حمد الجاسر الإنسان ما كان «حمد» العالم .. ولولا «حمد» العالم ما ارتقى ذلك المبدع إلى مصاف المبدعين الطامحين الذين يعلقون طموحهم بالشمس .

نشر «حمد الجاسر» مذكراته عن رحلاته خارج المملكة على صورة مقالات متعددة في مجلة «العرب» وجريدة «اليمامة» ، ثم رأى أن يجمعها في كتاب يستعين به بعد أن بدأ النسيان يتطرق إلى ذاكرته . فجمعها بعد إلحاح بعض المعنيين بأعماله . وجاءت رحلاته سِفراً يتم ذلك النهج الذي اختطه السلف في أدب الرحلة على تنوع أهداف تدوينها . ومع أن المؤلف «الجاسر» يقلل من شأن رحلاته التي لم تستهدف البحث والتنقيب ويوجّه في مقدمة كتابه الأنظار إلى رحلاته التي دونَ فيها ملاحظاته عن المخطوطات التي قام بدراستها ومراجعتها في مكتبات المغرب العربي وبعض بلدان أوروبا إنكلترا وفرنسا وهولندا وألمانيا ومع ذلك فإن مشاهداته الاجتماعية والإنسانية لا تقلّ إمتاعاً وأهمية عما كتبه عن المخطوطات العربية الإسلامية التي راجعها ، والمكتبات التي زارها .

افتتح العلامة «الجاسر» رحلاته بزيارة للجزائر عام ١٩٧٢م ، فأمضى فيها أربعين يوماً قضاها بين المعالجة الفيزيائية والتنقيب عن المخطوطات ، وكان يعاني بسبب جلوسه الطويل في المكتبات من آلام في الظهر . فيصبر ويجالد ، وهو يرسل نفسه على سجيتها في البحث ، فيتحدث عن متاعب إجراءات السفر ، وما يعترض الزائر من عوائق أصعبها العثور على فندق في الجزائر العاصمة ، ثم يزور المكتبة الوطنية فيها ، ويستعرض فهرسها الذي يضم ١٩٨٧ مخطوطاً ، فيستشير منها ما يتصل بأدب الرحلات مثل رحلات عبد الغني النابلسي وأحمد ناصر الدرعي . ويطلع على رسالة مخطوطة عنوانها «حكم قناديل المدينة» للفيروزآبادي ، ويذكر أنها نشرت في كتاب «المغانم المطابة» الذي حقق

القسم الجغرافي منه ونشره منذ سنوات ، غير أن نسخة المكتبة الوطنية هذه أقدم عهداً ، فقد نُسخَت بعد وفاة المؤلف بثلاث سنوات ، فطلب صورة منها ، ولم يكن ما معه من نقود يفي بأجرة تصويرها ، وفي الجزائر العاصمة يلاحظ العناوين واللافتات المكتوبة بالفرنسية. وقد أخذت العربية تزحمها ، ثم يعود إلى المكتبة الوطنية في اليوم الثاني فيراجع مخطوطة «خلاصة الوفاء» ويتبين له أنها جزء من كتاب : «الوفاء بأخبار دار المصطفى» والمخطوطة حافلة بالتصحيح ، ويطلع على مجموعة تحوي كتاب «القاموس ورسالتين» صغراهما عنوانها : «تعبير الموشين في الفرق بين السين والشين» ويذكر أنه اطلع على نسخة منها في مكتبة الأزهر ، وأن الأستاذ محمود شاكر طبعها . في بيروت ، ويتضح له أن ما ورد في نسخة الجزائر يختلف عن مخطوطة القاهرة وعمّا طبعه المحقق محمود شاكر، ومما يلفت نظره في محتوى الرسالة ما ذكره مؤلفها من أن الدست والدشت بفتح الدال (بمعنى الصحراء الواسعة) كلمتان عربيتان ، ويتوهم البعض أن كلمة الدست فارسية، ويؤكد عروبتها بالاستشهاد ببيتين من الشعر العربي .

ويتحدث عن انتشار الصحف العربية والمطبوعات اللبنانية في الجزائر بسبب ضعف حركة النشر ، ويعلق على ذلك بقوله : «الثقافة الفرنسية ماهي سوى مظهر من مظاهر الثقافة الإنسانية العامة ، وقد تسعى كل أمة نحو حياة كريمة من الحرية والاستقلال وتبني كياناً لها متميزاً محاطاً بكل أسباب القوة التي تظهر بمظهرها الصحيح ، وما سكان الجزائر سوى جزء من الأمة العربية الإسلامية التي تعتزّ بدينها الحنيف وترى في الحفاظ على العربية حفاظاً على كيان المجتمع» .

ويتحدث «الجانر» عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية والعربية ، فيعجبه أنه أدب يتناول واقع الحياة ، ويخلّد انتصارات شعب الجزائر ويبعث الروح الوطنية . وفي زيارة للمغرب .. يعرج على الدار البيضاء والرباط ومراكش .. فيعجب

بنواحي النشاط الثقافي فيها ومراكزه ومنها : معهد مولاي الحسن للأبحاث ، وجامعة القرويين ، والمركز الجامعي للبحث العلمي ، ومكتب تنسيق التعريب ، ويتصل بأعلام الفكر فيها كالعالم «الفاسي» الذي حقق والده ونشر عدداً من الرحلات المغربية ، ومن بينها رحلة عنوانها «أنس الساري السارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد العرب والأعاجم» لمحمد بن أحمد السراج الملقب بابن مليح .

وبروح العالم المطلع يوجه «الجاسر» ملاحظات عابرة على بعض ما ورد في هذه الرحلة من غلط وتصحيف ، ثم يثني على نشاط مكتب تنسيق التعريب في خدمة اللغة العربية ، ويستعرض في فصل المخطوطات التي اطلع عليها في الخزانة العامة بالرباط ، وخاصة الرحلات .. فيذكر منها «سفرنامه» لناصر خسرو ، ورحلة الصفدي إلى الحج ، ورحلة النابلسي ، ورحلة البكري ، ورحلة ابن القاسم الواحدي من حلب إلى مكة ، ورحلة الأنسي .. وعنوانها : «الإنعام التام إلى البيت الحرام» وأخرى عنوانها : «بلوغ المرام في الرحلة إلى البيت الحرام» ليحيى بن مطهر بن إسماعيل الميمني .. ويشير إلى معاناته في قراءة الخط المغربي خاصة إذ كان عسيراً عليه .

وفي زيارة ثانية للخزانة السلطانية التابعة لجامعة محمد الخامس يتابع «الجاسر» الاطلاع على عدد من الرحلات المغربية المخطوطة للمكناسي السجلماسي والوريكي وعبدالهادي العلوي والجزولي ، ورحلة الأميرة «خاتمة بنت بكار» ويصور نسخاً من بعضها ، ويأسف لأن الوقت لم يسمح له بالاطلاع على رحلات أخرى يذكر عناوينها ، وهي تزيد على عشرين رحلة ، كما يلفت نظره في فهرس مخطوطات الأوقاف كتاب «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل الحنبلي النعماني ، لكنه لم يطلع عليه لضيق الوقت ، غير أنه اطلع على ديوان الشاعر حمدون بن حاج السلمي (ت ١٢٣٢هـ) وأثبت منه قصيدة قالها بلسان السلطان المغربي سليمان محمد بن عبدالله ١٢١٨ - ١٢٢٩هـ

في مدح الإمام سعود بن عبدالعزيز الأول ، وفيها يشير الشاعر إلى عهده الذي اتسم بالأمن والاستقرار :

لا شيء يمنع من حج ومعتمر
وزورة تكمل المأمول في حرم
إذ عادَ دربُ الحجاز اليوم سالِكُه
أهنا وآمنٌ من حمامة الحرم

وفي مطلع رحلته إلى مدينة مراكش .. يبدي إعجابه بتخطيط المدن في المغرب ، إذ يحافظ على القديم ، ويحتل فيه الجديد من المدينة مساحة مضافة دون أن يتداخلا ، ويثني على جمال الطبيعة وعناية أهلها بالسياحة والآثار ، ثم يزور مكتبة يوسف العامة أو بيت الطالب كما يسمونها . ومن مخطوطاتها «الجلس الصالح للمعالي» لابن زكريا النهروالي، فيعجب بأبوابه وأسلوبه ، ويشير إلى نسخة منه موجودة في مكتبات «إستانبول» . كما يطلع على نسخة من مخطوط «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ، ورسالة لابن شرف عنوانها : «الأمثال المختارة من كتاب أبقار الأفكار» تحوي مئة بيت مما يستخدمه الناس في كلامهم من أشعار العرب وأكثرها للشاعر المتنبي . وفي المكتبة أجزاء مخطوطة من تاريخ دمشق لابن عساكر أفاد منها المرحوم الدكتور شكري فيصل في تحقيق الكتاب ونشره .

وبعد زيارة عابرة للدار البيضاء ، يسافر «الجالس» إلى تونس فيزور المكتبة العامة فيها ، ويطلع على نسخة مخطوطة لكتاب «الحماسة» وهي نسخة أندلسية حسنة الخط لا نظير لها في المخطوطات رونقاً .. ويبدو أن المؤلف «الشتنمري» عارض فيها حماسة أبي تمام ، كما يطلع أيضاً على عدد من الرحلات المغربية المخطوطة «كالشرف الأعلى في ذكر قبور مقبرة المعلا» لجمال الدين الشيبني ، و«فحص النصيحة» لمحمد بن أبي بكر بن خضر.

و«الخصال المكفرة لذنوب المتقدمة والمتأخرة» لابن حجر ، ويصف بدقة كلاً من هذه المخطوطات .

وفي زيارة لاحقة يتابع اطلاعه على مخطوطات المكتبة الوطنية العامة بتونس ، ومنها مخطوط عنوانه «التحرير فيما وقع بين الفرزدق وجريز» فيكتشف «الجاسر» أنه جزء من كتاب «النقائض» لابن عبيدة .

ومن المعجب حقاً إمام العلامة «الجاسر» بكتب التراث ومخطوطاته ، حتى بدا وكأنه عجنها دراسة وتمحيصاً .

وفي زيارته لمدينة «إستانبول» (١٩٦٥م) يزور المكتبات والجوامع في حي «بايزيد» ومنها : «المكتبة السليمانية - المكتبة العامة - مكتبة نور عثمانية - مكتبة طوب كابي - مكتبة أيا صوفيا - م . ملّت - م . كوبريلي - مكتبة راغب باشا - م . جامعة إستانبول - م . البلدية» .

ويعجب بكثرة مساجد هذه المدينة ، وما ينشأ في جوارها من مكتبات ، وبالحرص على الآثار الإسلامية والمخطوطات فيها . ففي «مكتبة السليمانية» وحدها عشرون ألف مخطوط تقريباً . وقد اطلع على عدد كبير من الفهارس والمخطوطات في زيارته لهذه المكتبات .. ومنها : «كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني» للنهروالي ، ونسخته المخطوطة الموجودة في متحف «طوب كابي» من أوثق النسخ أهداها المؤلف لسان باشا . ومن نفائس هذه المكتبة ثلاث نسخ مخطوطة لكتاب «تاريخ مكة» للأزرقي ، وصفها «الجاسر» بالتفصيل ، وكتاب «طبقات الحنابلة» لابن الفراء ، وكتاب «مجمع الأمثال» للميداني ، و«رسل الملوك» لابن الفراء . و«صورة الأرض» لابن حوقل ، وكتاب «الجغرافية» الذي نسب في الفهرس للخوارزمي . وفي المكتبة السليمانية عثر على كتاب عنوانه : «المقالات الجوهريّة على المقامات الحريرية» للزمزمي من علماء مكة وأدبائها ،

ومنه نسخة في مدينة «قونية» أيضاً وكتاب «الأماكن» للحازمي ، وهي نسخة فريدة ، و«تاريخ مكة المكرمة» للقيلولي ، و«غلطات العوام» لابن الجوزي .

وفي مكتبة «أيا صوفيا» يطلع على مخطوط كتاب «تصحيح التصحيح وتحرير التحريف» للصفدي .. مثلما يطلع في مكتبة «علي أميرى» على مخطوط كتاب «صفة جزيرة العرب» ومخطوط كتاب «نسيم الصبا ونديم الصبا» لإبراهيم المهتار ، أحد شعراء مكة في القرن الحادي عشر .. ويستعرض أبوابه بشمول .

وفي مكتبة «أيا صوفيا» يطلع على مخطوطة كتاب «فضائل مكة والمدينة» ويشير «الjasر» إلى أنه وضع نُصب عينيه ألا يتعرّض لمخطوطات الكتب المشهورة كثيرة النُسخ في المخطوطات التي يصفها أو يشير إليها ، وإنما يعنى بالنادر منها فحسب . والذي له صلة بتاريخ بلاد جزيرة العرب أو جغرافيتها . ويبدو إخلاص «الjasر» للعلم وخدمته من إشارته إلى أنه وجد نسخة قديمة من كتاب «العقل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد بن حنبل المطبوع . ومن هذا الكتاب وريقات كان صوّرَها له صديقه «النفّاخ» من مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق ، فأرسلها إلى محققى الكتاب للاستفادة منها . وفي حديثه عن مخطوطة لديوان «الأبيوري» يستغرب لماذا انصرف المحققون عن ديوان هذا الشاعر على فحولته . وفي معرض حديثه عن مخطوطتين وجدتهما لكتاب «الاكتفاء» للكلاعي . يشير إلى حيل بعض النساخ إذ يختمون النسخ الناقصة مما نسخوه بعبارة توهم بأنها كاملة .

وفي مكتبة «كوبلرلي» يطلع على نسخ من مخطوطات كتاب «البعث والمغازي» لإسماعيل بن محمد التميمي الأصفهاني . وكتاب «جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام» ، ونسخة من مخطوطة كتاب «النوادر» تُسب إلى أبي زيد الأنصاري ، لكن يتبيّن أنه نسخة من كتاب «النوادر» لأبي علي القالي ، ولم يفتن قبله أحد إلى هذا التصحيح .

ويعلق على ذلك قائلاً : «وتجد المفهرسين كثيراً ما يضعون أسماء مؤلفات في غير موضعها من الفهرس .. ولا أريد من هذا القول الانتقاص من عملهم ، فهم جديرون بالثناء، ولكن لأوضح أن الباحث يحتاج إلى طول وقت وشدة تعمق ، وهما أمران لا يتاحان لكل إنسان» . ويزور «حمد الجاسر» في تركيا مدينتي «بورصة وقونية» ثم يعود إلى إستانبول باحثاً بعناية وتفرغ عن عالم المخطوطات الذي أحبه .

ويُرهب عينيهِ بالمطالعة «كانت غرفة المطالعة ضعيفة الإنارة ، فلقيت مشقة في مطالعة الفهرس ، أحسست بعدها بألم في عيني ، وزاد ذلك عدم إدراك بغيتي فخرجت من المكتبة» .

ومن المخطوطات التي وصفها أو أشار إلى أنه اطلع عليها في مدينة «بورصة» كتاب «تذكرة ابن حمدون» لمحمد بن الحسن .. بن حمدون (ت ٥٦٢هـ) ولا تزال مخطوطة، وكتاب «الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام» للحافظ السهيلي ، وكتاب «تحصيل المرام» للفاسي ، ومنه نسخة - كما يشير - في مكتبة الأسكوريال . وهي أجود نسخة في المكتبات الأخرى .

وفي إستانبول مخطوطة من كتاب «منازل الحج» للأتباي ، فيصفها ويُبرز أهميتها الجغرافية ، ويتحدث مفصلاً عن مخطوطة كتاب «اللباب في علم الأنساب» للأشعري اليمني ، وكتاب «التبيين في نسب القرشيين» لابن قدامة الحنبلي ، وكتاب «مثير الساكن إلى أشرف الأماكن» لابن الجوزي ، ويشير إلى أن رحلة النابلسي جاءت بعنوان «الحقيقة والمجاز» .

وفصل في وصف مخطوطتي كتاب «الأنساب» وهو مختصر لكتاب الرشاطي واللباب لابن الأثير» وكتاب «الدرر والفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة» ويذكر نسخته الأخرى الموزعة في مكتبات العالم . ثم يستعرض محتوى مخطوطات

لكتاب: «أوضح المسالك» لسياهي زاده التركي ، وكتاب «العقل والنقل» لابن تيمية ، وكتاب «معجم ما استعجم من أسماء المواضع» للبكري ، وكتاب «تمثال الأمثال» لجمال الدين الشيباني المكي ، ورسالة «راحة المعنى في محاسن الكلام المثني» للشيباني المكي ، وكتاب «براعة الاستهلال فيما يتعلق بالهلال» لعبدالرحمن بن عيسى بن مرشد العمري ، وكتاب «فوائد النيل بفضل الخيل» ويتحدث عن كل ما يتصل بالخيول وتربيتها وإعدادها للسباق .. وكتاب «المقصود والممدود» لابن ولاد ، وكتاب «جامع التعريب» للجواليقي ، و«ست رسائل» لابن الحنبلي ، و«ديوان التهامي» المطبوع في دمشق ، ويعلق الجاسر على النسخة قائلاً : «وهي وإن كان ما فيها من الشعر ، أقل مما في طبعة دمشق ، ففيها ما ليس في تلك المطبوعة .

ويتحدث «حمد الجاسر» عن زيارته لكل من هولندا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا للغرض نفسه ، فيشير إلى مكانة مدينة «ليون» الفرنسية كمركز للدراسات الاستشراقية ، حيث تضم مكتبة جامعها مليوناً ونصف المليون من المجلدات منها سبعة آلاف مخطوطة .. ويضطر «الجاسر» في لندن أن ينام في غرفة لا تتسع لجسده تحت سقف من الصفيح في أحد فنادقها بعد أن خاب سعيه في الوصول إلى مكان للمبيت ، ويصح بعض أخطاء المستشرقين في نشر المخطوطات ، فيذكر كيف اعتمد ناشر تاريخ «ابن المجاور» على المستشرقين في نسبة الكتاب لابن المجاور الشيباني .. مع أن مؤلفه عجمي نيسابوري قدم إلى الهند من مدينة جدة .

ويصف مخطوطة «ديوان التهامي» المودعة في مكتبة متحف لندن ، و«رسالة في منازل الحج» لعدد من المؤلفين ، ويعنى بما فيها عن منازل طريق مكة ، وكتاب «النفحة المسكية في الرحلة المكية» والجزء الثالث من كتاب «زهر الرياض وزلال الحياض» لعلي بن شذقم ، وصح بعض الهفوات التي وردت في نسخته المطبوعة ، كتاريخ ولادة

المؤلف ، وكتاب «نشر العلم في شرح لامية العجم» للحضرمي .
ويشير «الجاسر» إلى معاناته في أوربة بسبب جهله بلغات بلدانها وجهل القائمين
على شؤون المكتبات باللغة العربية ، ومقابلاته لأعلام المستشرقين .
ويزور مكتبة «الفاتيكان» فيطلع على كتاب عنوانه «تعريف أسرار الحكمة»
ويتبين له أنه نسخة من «مختصر التلويح إلى أسرار التنقيح» لابن سينا . وفي باريس ..
يقابل المستشرق «شارل بلا» ويشارك في حضور مؤتمر للمستشرقين لم يرقه ، لأن لغة
محاضراته لم تكن العربية ، ولم يكلف القائمون عليه أنفسهم عناء الترجمة إليها ، ويعلق
على ذلك ، ففضلاء المستشرقين لهم أيدٍ معروفة نافعة في مجال الآثار منها توجيه
الدراسات الأدبية والتاريخية توجيهاً جديداً ، والعناية بالتراث وتاريخ العرب ، والتنقيب
عن الأوابد .

وعلى الرغم من ذلك «فلا يخفى على أحد أن دافع الاستشراق كان من الوسائل
التي أريد بها السيطرة على الشعوب ، ثم اتجه بعض المستشرقين وقليل ما هم .. وجهة
أخرى هي الوجهة العلمية الخالصة» .

* * *

هذه جولة قصيرة لفيض غزير مما ورد في رحلاته ، وقد عنيت فيه بما يتعلق بالشيخ
«حمد الجاسر» العالم ، وإبراز سمات شخصيته العلمية ، فجهوده تعكس عدداً من هذه
السمات التي قلَّ أن تجتمع بالعالم ومنها : الإخلاص للعلم والتفرغ الكامل له ، ووضوح
المنهج والرؤية لديه ، يرفد ذلك كله علم واسع في مجال اهتمامه ، حتى بدا أنه يستطيع
الإحاطة والشمول أن يقوم ويصحح المعلومات التي تتصل بصحة المخطوطات وسلامة
نسبتها إلى أصحابها ، ويعارض بين نسخها بتمكن ، مع قدرة على وصفها بدقة وافية ،
ومنهج علمي متميز . لقد نذر الشيخ «حمد الجاسر» نفسه لتراث الجزيرة العربية ، ولا

سيما ما يتصل منه بجغرافيتها ولغتها وتاريخها ، فتابع ذلك الاهتمام بدافع علمي منزّه حتى ذلك بحثاً وتنقيباً وإحاطة ، كما أُتيح له من الصفات الإنسانية الفريدة ما أهّله لأن يكون عالماً متميزاً كالاستعداد للتضحية والجلد والمثابرة والحياد والتواضع ، والشجاعة في الجهر بالحقائق والدفاع عنها ، والذاكرة العجيبة التي تداني في دقتها الحواسب العصرية دقة وغزارة ، فكانت جهوده أعظم خدمة يقدمها للتراث العربي الإسلامي ؛ إذ إن الجزيرة العربية هي مهد هذا التراث وقلبه النابض .

ولا يتسع القول للحديث عن سمات « الجاسر » الأديب والإنسان ، ففي كتاباته وآثاره يتجلّى النبل الإنساني ، وطرافة الشخصية ، وجمال العرض ، وحسن التعبير ، مما يمكن أن يكون موضوعاً لمقال آخر .

رحم الله « حمد الجاسر » ويحسبه أن أعماله قد أحدثت دويّاً في عصرنا ، وقد استغلها الدارسون في وجوه عديدة من البحوث التاريخية والجغرافية فكانت سبيله إلى الخلود .

عبد اللطيف الأرناؤوط

باحث ومحقق

دمشق - سوريا